المسيح... طبيب يعالج الأمراض النفسية

في العصر الراهن، عصر الطموحات والتنافس والصراعات، والسعي المحموم وراء الثروة، مع انعدام الإحساس بالاستقرار أو الأمان، تزداد الاضطرابات النفسية حدة، وتتفاقم مشاعر القلق والضياع، ويجنح الكثيرون، بالتالي إلى اللامبالاة واليأس والعبثية والبحث عن مختلف الملذات بدافع التعويض أو الهرب من مرارة الواقع أو الخوف من مواجهته، وتزدحم عيادات الأطباء النفسانيين بالمرضى. ولكن هل ينفع كل هذا؟ وهل تفيد بعض الأدوية المهدئة أو جلسات "الدردشة" أو أساليب التحليل النفسي لحل المشاكل؟ أعتقد أن هذه مجرد إدمانات جديدة قد تفيد لوهلة، ولكنها لا تستأصل مشاكل الإنسان من جذورها، ولعلنا يجب أن نلجأ إلى طبيب نفساني آخر، له خبرة وله معرفة بحياة وسلوك ومعاناة البشر، وله قدرة على حل المشاكل من جذورها، وله قدرة على أن يحب الجميع دون أن يتقاضى "أتعاباً" لقاء العلاجات التي دائماً ما تكون ناجحة، إنه الرب يسوع المسيح. وهذه المقالة هي حول هذا الموضوع، وهي ليست "دعاية" له، إذ ليس له "عيادة" يمكنكم أن تقصدوها. فلنقرأ معاً.

هل يستطيع الطب النفسي أن يعالج الأمراض النفسية؟

آلاف مؤلفة من المرضى يصابون بأمراض نفسية. وبعد الفحص الدقيق يقول لهم الطبيب: ليس هناك أي مرض في الجسم، كل ما هنالك أنك عصبي!

إنهم يرجون شفاء من الخوف، والقلق، والحزن.

وهذه الأمراض النفسية لا تأتي فجأة أبداً. إنها النتيجة الحتمية لعبودية قاسية تستغرق حياة الفرد كلها، ولذلك لايستطيع المريض بها أن يخلص نفسه من قبضتها التي كيفت حياته وطريقة تفكيره العمر كله!

فهذا رجل أعمال كل غرضه في الحياة أن يكدس المال أكداساً. تتركز كل اهتماماته وتدبيراته حول ذاته. تراه يعيش في قلق دائم من جهة أعماله الكثيرة، وفي خوف مستمر من أي فشل غير متوقع. وتجده يشكو من اضطرابات معدية كثيرة. ويشير عليه الأطباء أن يترك أعماله جانباً، ولو لفترة قصيرة... لكنه لا يستطيع! تجده يجرب شتى العقاقير لتهدئة حالته المستعصية وصداعه المستمر.. ولكن دون فائدة.

جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل youth@arabicbible.com ar.arabicbible.com

بل إن هذه الأعراض تجعله دائم الخوف من المرض، لئلا يصبح مزمناً غير قابل للشفاء .. فتـراه يجرب الاستشفاء في المستشفيات، ويجرب مهدئات الأعصاب ثم يجرب مختلف العلاجات النفسية، وهـذه كلها قد تعطيه بعض الراحة المؤقتة فقط.

إن العلاج الوحيد لمثل هذه الحالة هو قبول الرب يسوع المسيح مخلصاً، والإيمان بعمله الفـدائي الكامل على الصليب، فيجد الإنسان سلاماً لنفسه المتعبة. وحين يسود السلام علـى الـنفس يتلاشـى الخوف، والقلق، والهم.

الرب يسوع يقود خرافه التي تتبعه منجذبة بمحبته، ومحبته هذه هي التي تزيل كل قلق، وتمحو كل خوف، وتبدد كل حزن. أما الشيطان فهو يسوق الذين استعبدهم، مستعملاً في إذلالهم كل خوف وقلق. والقلق المستمر يدفعهم إلى التماس الراحة بأي شكل وبأي كيفية. فإذا بالشيطان يقتـرح علـيهم شـتى الحلول المؤقتة والعروض المهدئة، مثل ترضية وإشباع شهوات الجسد المتنوعة، كما تفعل الأم الجاهلة مـع ولدها الوحيد المدلل إذ تحاول ترضيته بأي شكل، ملبية طلباته مهما كانت حمقاء أو شاذة، وبذلك تزيـد فساداً وغروراً وانحرافاً.

والشيطان في ذلك تراه يجمل أسماء هذه الانحرافات حتى تظهر بمظهر لا يثير غـضب الـضمير، فيسمى الزنا بالحب الحر، والقتل بالجنون الوقتي.. وهكذا. ولقد أقام الشيطان معلمين كذبـة كـثيرين، يزينون الخطية للناس فيشربونها كالماء دون تأنيب من الضمير.

كما أن رئيس سلطان الهواء حريص دائماً على أن يقطع خط الرجعة على كل نفس تريد أن تلجأ إلى الله مصلية صارخة طالبة الخلاص، بأن يقدم لها علاجاً جديداً للأعصاب المرهقة. ولكـن كـل هـذه العلاجات لا تستطيع أن تغير من طريقة التفكير. إنها مجرد مهدئات وقتية، لا تخلص المريض من مخاوفـه، لأن "الخوف له عذاب" (١ يو ٤: ١٨).

وقد يلجأ الشخص غير المولود من الله إلى "شهوة العيون"، فتجده يهرع إلى شاشـة الـسينما أو التلفزيون مستغرقاً في خيالاته الدنسة، أو قد يغرق جسده في شهواته الغريزية ليحصل على بعض الراحـة من التوتر العصبي الذي يعاني منه.

بل إن العلوم العصرية، والنجاح المادي، وبريق المركز الاجتماعي في العالم الحاضر، كل هـذه لا تستطيع أن تغير من حالة النفس الداخلية، رغم أنها قد تكون طعاماً للذات، تعطي المريض بعض الرضـى النفسي.

لقد نجح العالم في اصطياد الكثيرين بشباك تعظم المعيشة. فنرى البعض يلجأون للدراسات العلمية الطويلة،والتي بعدها يحصلون على الشهادات اللامعة التي يكللها العالم بالمجد، وذلك لكي يُغرقوا أنفـسهم في المجهودات التي تستنفد الطاقة، ولكنها تنتج أخيراً نتائج من "خشب، وعشب، وقش"، لا بد وأن تحترق يوماً ما بالنار، نار الدينونة، لأن الغرض الأوحد منها هو تمجيد الذات، تلك التي ينبغي أن تحسب مصلوبة

ar.arabicbible.com youth@arabicbible.com جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل

مع المسيح بالصليب. فهل جلبت هذه الأمور السعادة النفسية لهؤلاء الناس؟ إن التحليل النفسي يثبت العكس، إذ أن النتيجة هي الانهيار العصبي لكل أولئك الذين ربطوا أنفسهم بالعالم الحاضر الشرير.

إنهم لا يهتمون بالأشياء التي هي فوق، حيث المسيح جالس عن يمين الله (كو ٣: ١). كل اهتمامهم هو بالأشياء الأرضية. وهكذا تسير الأمور في حلقة مفرغة ودائرة قاسية، بالغة القسوة!.

فهل من العجيب أن يصبح المرضى بالقلق والخوف وقد وجدوا أنفسهم أسرى لشهواتهم الخاصة؟

لقد فقدوا كل أمل، وأصابهم يأس عميق! ماذا عساهم يفعلون؟! إنهم يستمرون مشدودين بالعالم، حيث جنود الشر الروحية التي يرأسها رئيس سلطان الهواء، يطوح بهم في هاوية الشرور والملذات والإغراءات، عسى أن يخففوا عن أنفسهم وطأة الخوف والقلق النفسي. وحين تفشل تلك في العلاج يلجأون إلى العيادات النفسية والتحليل النفسي.

إن الشيطان يصارع ليمتلك عقول الناس بواسطة الدعاية الجبارة للعلاج النفسي محاولاً إخفاء أهمية الحياة الروحية للإنسان، مركزاً على أهمية الناحية العلاجية للعقل كموطن للخوف والهم والقلق.

إن المؤمن المولود ثانية من الله هو الوحيد الذي يستطيع أن يدرك الخدعة الشيطانية في تلك الأفكار الجهنمية. إنها محاولة جريئة من الشيطان لإنكار أية حاجة للمسيح، أو ضرورة لعمله، والتركيز على قدرات الإنسان وإمكانياته. وحتى القليلون الذين يؤمنون بحاجتهم إلى الله، يلجأون إلى غير دم المسيح، حسبما يحاول علم النفس العقلي أن يوحي به إليهم.

وأنه لمن الطبيعي ألا يستطيع العالم أن يرى الحماقة في هذا التفكير، كما لا يستطيع أن يدرك الخدعة الماكرة الكامنة في طياته، وذلك لأنه لا يؤمن بكلمة الله التي تقول أن "الأفكار والنيات" (عب ٤: ١٢) والتصور (تك ٦: ٥) كلها مركزها القلب وليس العقل.

إن الإنسان غير المؤمن يصنع لنفسه فلسفة في الحياة تتفق مع طريقة تفكيره، وتلك الفلسفة لا يمكن أن تعطيه خلاصاً أو سلاماً. وحين يكتشف إخفاق تلك الفلسفة يستعيض عنها بأخرى يخترعها له عقله غير المؤمن، وما لم يؤمن الإنسان إيماناً حقيقياً بالمسيح فإنه لا يستطيع مطلقاً أن يتمتع بالسلام أو الخلاص لأن الشيطان هو المسيطر على تفكيره وعلى غرائزه.

المسيح هو العلاج

لقد أعطانا الله علاجاً ناجعاً للأمراض النفسية. وأنت، إذا لم تكن قد قبلت الرب يسوع المسيح مخلّصاً لك فإن الله يدعوك أن تقبله، وأن تؤمن بالدم المسفوك الذي سال من جنب المسيح على خشبة الصليب تكفيراً عن خطاياك.

ولنفكر ملياً في هذه الحقيقة الخالدة الثابتة، أن بعد الموت لا بد من أحد مكانين: إما الفردوس، أو الهاوية!

فالذي لم يؤمن بدم المسيح لا يمكن أن يذهب إلى حيث المسيح، بل بعيداً عنه في الهاوية.

ar.arabicbible.com youth@arabicbible.com جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل

أما المؤمن بالمسيح فيذهب ليكون مع المسيح إلى الأبد.

وقد تسأل: وكيف يستطيع قبولي للمسيح أن يساعدني على الخلاص من القلق والهم؟

بعدما تؤمن بالدم الكريم المسفوك لأجلك يرسل الله روحه القدوس ليسكن فيك ويعلّمك ويفهمك كلمة الله. وحين تقرأ كلمة الله وتخبئها في قلبك تستطيع أن تصارع قوات الشر الروحية وتنتصر عليها، وبالتالي تهزم كل ما توحي به إليك من شكوك وهموم وقلق. وإذ تؤمن بمحبة الله الثابتة والمستمرة لك، وتسير معه خطوة فخطوة بقوة الروح القدس، ناظراً إلى صليب المسيح حيث قد هزم كل قوات الشر لأجلك، فإنك بذلك تستطيع أن تسمر الجسد وشهواته على الصليب.

مرة جاءتني سيدة تشكو ما تشعر به قائلة: "إنني أخشى أن أكون قد أصبت بانهيار عصبي. إنني لا أستطيع السيطرة على أفكاري. حين أقرأ الكتاب المقدس لا أستطيع أن أركز تفكيري، وصلواتي لا إجابة لها! لقد أصبحت أشك في حقيقة تجديدي وخلاصي، وهناك شعور يلازمني ويضغط على تفكيري يوماً بعد يوم بأنني سوف أفقد السيطرة على نفسي، وأحياناً يراودني شعور بالانتحار، لكنني أعلم أن هذا من الشيطان. والآن فإني أخشى من الوحدة مع نفسي، لأنني أخاف أن أفقد عقلي وفي لحظة أنتحر وأقضي على حياتي!".

نعم، قد تستولي على بعض المسيحيين أفكار مثل هذه، لكن الرب يسوع قال "لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب" (يو ١٤).

أيها القارئ المسيحي، هل أدركت معنى هذا القول الكريم المبارك: "لا تضطرب قلوبكم"؟. إن الكتاب المقدس من أوله إلى آخره يحرض أولاد الله على الثقة المطلقة في الله، وطرح كل الهموم والاضطرابات والانزعاجات وعدم السماح لها بالتراكم في القلب والحياة، فتسبب اضطراب الأعصاب.

التوتر الفكري

الإنسان الذي لديه مشاكل عاطفية، ويسود عليه التوتر الفكري، لم يصل إلى هذه الحالة بين يوم وليلة. لقد ظل يعاني ويعاني زمناً طويلاً، وربما في بعض الحالات لعدة سنوات، وكانت نتيجة القلق المستمر ليلاً ونهاراً لفترة طويلة، ذلك التوتر الفكري الذي يشكو منه، فيذهب إلى الطبيب ملتمساً العلاج والشفاء.

إنها حالة مزمنة تراكم وجودها على مر الزمن، فأصبحت بناء راسخاً في الفكر الإنساني. ومعظم المرضى يدركون حقيقة أنه بازدياد المخاوف يبدأ التوتر في الانحسار شيئاً فشيئاً.

وكل مرضى الأعصاب يشكون من تصلب في الجسم بعض الوقت، وبعضهم يشكو من تصلب مستمر دائم بعضهم يشكو من تصلب في العنق، أو حول الرأس. أحياناً في الصدر أو البطن، في المرارة أو المعدة. صداع، سوء هضم، تعطل بعض الأعضاء عن أداء وظائفها كما يجب... لا بسبب مرض عضوي، بل بسبب أمراض نفسية كالخوف والقلق.

جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل youth@arabicbible.com ar.arabicbible.com

لا لوم على الطبيب

إن مرضى الأعصاب يلتمسون شفاء من الأعراض التي يعانون منها، سواء كانت هذه الأعراض فكرية أو حسية. وفي العادة فإن الطبيب يصف دواء للأعصاب. والدواء في حد ذاته لا يستطيع أن يعالج المشاكل العاطفية. إنه عبارة عن مهدئات للأعصاب فقط، فيقلل من حدة التفكير، فيشعر المريض ببعض الراحة، لكنه لا يشفى!..

وليس على الطبيب من لوم في ذلك، لأنه لم يعرف سبب نشأة تلك الحالة العصبية. إن مرضى الأعصاب في هذه الأيام لا يزالون أشبه بأول مريض أصيب في نفسيته، وهو آدم.

إن آدم لم يعترف لله بالسبب في حالة الخوف التي تملكت عليه. ونجده يقول: "أنا خائف.. عريان. فاختبأت". والطبيب الأعظم لم يلتفت إلى تلك الأعراض، لكن عينه الفاحصة اخترقت نفس آدم ولمست سبب ذلك الخوف، وسأله سؤالاً ليلمس ذلك السبب: "هل أكلت؟". إن الطبيب العصري لا يستطيع أن يرى سبب حالة المريض العصبي. إنه يستطيع أن يدرك فقط أن المريض يعاني من مخاوف واضطرابات نفسية، ولذلك فهو يحاول تهدئتها بالعقاقير المهدئة. لكن المريض يظل عرضة لعودة تلك الأعراض بصورة شديدة عندما تهاجمه أية مخاوف أو اضطرابات جديدة.

ar.arabicbible.com youth@arabicbible.com جميع حقوق الطبع محفوظة للخدمة العربية للكرازة بالإنجيل